حيوانات نيتشه الفلسفية

سفينة زارا

الباحث: ياسين بوفري
الأستاذ المشرف: د. محمد مزيان
طالب باحث في سلك الدكتوراه، جامعة ابن طفيل– القنيطرة
المملكة المغربية

الملخص:

اذا كان من شيء يحتفظ لنا به اليوم الفكر المعاصر، فهو إعادة قراءة تاريخ الفلسفة على ضوء ما رشح به الفكر الحديث والفلسفة المعاصرة؛ أعني إعادة إقحام كل ما أزاحه الفكر آنذاك بدافع أنه لا يخضع للمبادئ الثلاثة للمنطق الارسطي (مبدأ الهوية، مبدأ التناقض، مبدأ الثالث المرفوع). على هذا الاساس، نطمح في هذه الورقة – طموحا أكبر من حجمه – أن نسائل تاريخ الفلسفة، على ضوء ما قدمته الفلسفة المعاصرة بإعادة النظر في اسئلة الهامش، بعدما أبعدتها الفلسفة الحديثة (فلسفة ديكارت اساسا)، وتطوير الاسئلة التي ظلت عالقة منها، عبر قراءة تاريخ الافكار على اعقابها قراءة تأويلية؛ خصوصا أن هذه الفلسفة وعت بأنه ليست هناك حقائق، بل هناك فقط تأويلات .

من هنا يجد سؤالنا عن الحيوان مشروعيته كأحد اسئلة الهامش الذي وجب الاتجاه اليها رأسا، بعد حضوره في الادبيات النيتشوية، وشمل كل المناحي التي طرقها، سواء في حديثه عن الفن او العلم او المعرفة، او المرأة،....الخ، وتنبه فلاسفة **كهيدغر وديريدا** الى معالجته؛ فقد حاول الاول الارتقاء به الى باب السؤال، من خلال الدروس التي القاها تحت عنوان " الدروس الاساسية في الميتافيزيقا"، بينما ذهب الثاني الى النهوض به، حتى يتمكن من إيجاد مشروعية الحديث عن الحيوان كمصطلح من جهة، وتوضيح مدى مساهمة الفلسفة في ابعاد الحيوان عن قصد من دائرة الفكر الفلسفي، حتى يحتفظ الانسان بالعقلانية لذاته. غير أننا لا نتوخى من تتبع رمزية الحيوانات لدى نيتشه إحصائها أو عرض موقعها، أو تبيان الطابع البلاغي والمجازي الذي خدمته في كتاباته، بقدر ما نسعى إلى استجلاء الموقف الذي يمرره نيتشه عبرها.

الكلمات المفاتيح: نيتشه، زرادشت، الاستعارة الحيوانية، الإنسان الأعلى، الهامش الفلسفي

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

Nietzsche's Philosophical Animals:

Zarathustra's Ship

Abstract :

This research paper interrogates the history of philosophy by revisiting the "marginal questions" that were sidelined by modern Cartesian philosophy, focusing specifically on the symbolic presence of animals in the thought of Friedrich Nietzsche. The study argues that Nietzsche's philosophical project, particularly in "Thus Spoke Zarathustra," cannot be fully comprehended without analyzing the animal metaphors he employs, such as the Eagle, the Serpent, the Lion, and the Spider. These creatures are presented not as biological entities, but as profound metaphors representing the Will to Power, the Eternal Recurrence, and the transition toward the "Overman" (Übermensch). The research explores how Zarathustra's animals serve as companions in his journey to seek truth outside the traditional boundaries of Western metaphysics. By examining these philosophical animals, the article highlights Nietzsche's attempt to reintegrate the instinctual and natural dimensions of existence into philosophical thought. Ultimately, "Zarathustra's ship" carries a bestiary of symbols that challenge traditional morality and pave the way for a new, life-affirming philosophy that embraces the complexity of the human condition.

keywords : Nietzsche, Zarathustra, animal metaphor, Übermensch, philosophical margin

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

استهلال:

بعد عدة عقود من وفاة نيتشه، فيلسوف الإنسان الحيوان، لازلنا لا نعلم ما يجب القيام به مع الحيوان الذي نحن عليه. إن أخلاق المدرسة القديمة لا زالت تديم نموذج الإنسان كحيوان ضعيف، الحيوان الهزيل، مع إدعاء تفوق الكتاب المقدس على الإنسان الحيوان (هذا التفوق ربما يعد تعبيرا عن الحيوان المقموع في الإنسان الهزيل والمريض، وتعبير في نهاية المطاف على الخوف من الطبيعة الحيوانية. **Venissia Lemm**

يعتبر السؤال عن الحيوان اليوم، سؤالا غريبا عن الحقل التداولي الفلسفي نظرا لعدم ارتقاء المصطلح المقارب الى مرتبة المفهوم. إلا ان مقاربة هذا السؤال فلسفيا، هو وعي بالمسار الذي رسمته الفلسفة المعاصرة لذاتها؛ اقصد التفكير في اللا-مفكر فيه، والتفطن الى اسئلة الهامش التي رسم معالمها فلاسفة من قبيل: هيدغر ونيتشه في الحقبة الاولى، وفوكو ودولوز وديريدا في الحقبة الثانية، وجون بوفري وميشال اونفري في الوقت الراهن.

إنها اسئلة لم تبلغ في لحظتها الأولى إلى مستوى السؤال الفلسفي، نتيجة تغير أداة السؤال الماهوي " ما " والتي شابها كثيرا من المخرجات الميتافزيقية، جعلت التفكير رهين افكار محدودة من جهة؛ ويبحث عن الثابت بدل المتغير والمختلف من جهة اخرى. ليحل محل هذه الاداة، أداة أخرى أكثر جذرية لا تقف فقط عند جوهر أو أصل الشيء، بل تتعداه لتتساءل حول من يقف وراء هذا الأصل" من رواء قيمة الخير والشر " (نيتشه)، وكيف امتدت هذه القيمة في لحظة ما لتصبح موضوع اخلاقي بامتياز " الجنس مثلا " (فوكو).

الانتقال من السؤال الماهوي نحو السؤال عن الأصل/المنسي والكيفية التي يمتد بها في مباحث أخرى، رافقه انتقال على مستوى المنهج، إذ لم يعد الفيلسوف يكتفي بالجلوس في برجه العاجي ويكتفي بالتأمل في مواضيع مجردة واضعا بذلك قطيعة مع العالم، بل أصبح الفيلسوف يشتغل بمناهج حيوية تدفعه للتوسل بالمعاجم للمقارنة بين الكلمات (الفيولولوجية)، أو الدخول للمختبرات وفتح " أرشيف " الملفات مستقصيا عن أصل محتواها (الجينيالوجيا والأركيولوجيا)، بل أصبح الفيلسوف يزاوج بين مهمة الفيلسوف والطبيب الفيزيولوجي الأمر الذي يجعل من فلسفته فلسفة " الهنا والآن " ici et maintenait.

يجد السؤال عن الحيوان مشروعيته في الحقل التداولي الفلسفي، باعتباره أحد أسئلة الفلسفة المعاصرة (أسئلة الهامش) ، التي لم تجد اهتماما لدى القارئ المهتم بالمجال الفلسفي، وإن كانت حاضرة بقوة في كتب الفلاسفة المعاصرين، كما هو الحال لدى نيتشه، في كل كتبه، أو عند هيدغر في " سؤال الميتافيزيقا " ، أو لدى ديريدا في كتابه: " الحيوان الذي أنا عليه l'animale que donc je suis. أضف إلى ذلك بعض الكتابات المتأخرة التي عالجت موضوع الحيوان فلسفيا، سواء لدى Venessia Lemm عبر كتابها " حيوانات نيتشه الفلسفية " أو كتاب " حيوان مفرط في حيوانيته " للكلتب Andréa Potestà.

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

سؤال متعثر

إنه لشيء مقزز هاته العواطف التي يبديها الناس تجاه النباتات والحيوانات، وهم الذين عملوا على إتلافها والقضاء عليها منذ البداية كما لو كانت أعداءهم اللدودين، وفي نهاية المطاف يريدون من ضحاياهم المنهكة والمحطمة أن تبدي له مشاعر لطيفة.

[f,Auoure,128]

يبدو أن السؤال عن الحيوان، هو أحد الأسئلة " المتعثرة " في تاريخ الفلسفة، ومرد ذلك — في اعتقادنا – إلى حضور الحيوانات في الأدبيات الأسطورية، والممارسات الطقوسية، الشيء الذي جعل الفلسفة تتعامل معه، وهي تكتشف ذاتها، كجزء من التاريخ الأسطوري الذي وجب القطع معه بغية إرساء منطق عقلي؛ لهذا نجد مثلا أفلاطون platon (427 ق-م -347 ق-م) يوظف الحيوان للضرب في قيمة المعيار السفسطائي- الذي يجعل الإنسان معيار كل شيء-، تحت ذريعة أن هذا المعيار يضع قول الفرد في مصف قول الإنسان النائم أو القرد. أو يستثمر الحيوانات عندما يحاول أن يظهر خلل النظام الديموقراطي بوضع الحمار والخيول والإنسان جنبا إلى جنب.

هذه النظرة الدونية للحيوان التي أسس لها افلاطون في الفكر اليوناني – مرحلة ما بعد سقراط –، ستعرف مقاومة من تلميذه أرسطو (384 ق-م -322 ق-م)(عقل الأكاديمية) إذ سيجعل من الحيوانات جزءا من مشروعه الفكري عندما سيكتب كتاب من أربعة أجزاء وسمه ب: " أجزاء الحيوانات " on the parts of animals، مؤكدا أنه " حتى لو كانت دراسة الحيوانات غير قابلة للإدراك PERCEPTION، فإن الطبيعة التي خلقتهم بطريقة مماثلة likewise توفر ملذات غير عادية لأولئك القادرين على معرفة أسبابهم بطبيعتهم الفلسفية. (De partibus Animalium 1. 5)."[1] بل إن James G.Lennox (مترجم الكتاب) اعتبر أن هذا العمل هو روح وقلب الفلسفة الأرسطية، ويرجع ذلك إلى كون البحث في أجزاء الحيوانات تستمد من طبيعة المشروع البيولوجي ذاته.

العودة لمقاربة الحيوانات فلسفيا، سرعان ما ستقبر ثانية بعد ظهور التيار الأبيقوري والتيار الكلبي، إذ سيعرف هذا الأخير نزوعا نحو الزهد والابتعاد عن للعلناة التي تفجرها ينابيع المتعة، وبهذا " فكلما جعلت للعادة نوع الحياة التي يحياها مطلقا لديه، كلما تكونت لديه أحاسيس بالاشمئزاز أندر وأضعف من أحاسيس المتحضرين، وكلما اقترب من الحيوان الأليف. وفضلا عن ذلك، إنه يشعر في كل الأشياء بلذاعة التناقض، ثم [...] يمكنه كذلك أن يرقي ويزيد فرحا، وبفضل ذلك يسمو من جديد فوق عالم الأحاسيس الحيوانية. وللأبيقوري نفس وجهة نظر الكلبي، ليس بينهما عادة إلا فرق واحد في المزاج."[2]

انطلاقا من هذه الرؤية، ستزيد وضعية السؤال عن الحيوان تعقيدا في العصور الوسطى بعدما سيطر الفكر اللاهوتي على منطلقات الفكر، وجعل الإيمان أساس كل حكم فكري، ويرجع هذا التعقيد إلى سببين:

1- Aristotle (tales), On the Parts of Animals, translated with a Commentary by James G. Lennox, Clarendon press OXFORD, 2001, P, 11.

2- نيتشه (فريديريك)، إنسان مفرط في إنسانيته الجزء الأول، ترجمة محمد الناجي، إفريقيا الشرق- المغرب، الطبعة الأولى 2002، ص-ص. 153-152

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

أولا: أسباب عقدية، يستحضرها نيتشه عند البحث في طبيعة الأحكام التي يصدرها الإنسان في العصور الماضية حول استعباد الأفراد والشعوب، ويؤكد على أن العدالة لم تكن متطورة آنذلك، مدعيا أن " قسوة الإيطاليين على الحيوانات راجع إلى اللا-فهم؛ إذ تم الدفع بالحيوانات بعيدا وراء الإنسان بسبب المصالح العقدية للكنيسة على وجه الخصوص." [1]

الواقع أن هذا الاستبعاد لم تكن له دوافع موضوعية، أو رافقته نظرة تفحُصية تؤكد تناقض الطبيعة الحيوانية مع المعتقدات اللاهوتية، اللهم إذا استثنينا بعض الادعاءات التي ترى أن الحيوان تحكمه غرائزه وأهوائه وتجعله مقيدا بالعالم السفلي. إلا أن المتمعن في طبيعة الحيوانات – كما يوضح نيتشه – يستجلي أن للحيوانات نفسها منظومة عقدية تشبه لحد ما منظومة العقائد الدينية المبنية على التوحيد لدى الإنسان، إذ " على قدر ما نتصور أغلبية الأصناف الحيوانية الأخرى منذ وقت طويل؛ وهي كلها، بما هي حيوانات، تؤمن فعلا بحيوان فريد سوي وبمثل أعلى من صنفها، وقد تمثلت أخلاقية التقاليد la moralité mœurs بشكل نهائي في لحمها ودمها." [2]

إن نيتشه يذهب، أبعد من ذلك، عند حديثه عن " الرجال النبوئيون " ومدى اعتقاد للناس بأنهم يتوفرون على مميزات جميلة، للقول بأن الحيوانات أيضا لها أصناف تتمتع بالنبوة وتسعى للخلود كما هو الحال لدى الإنسان، إذ يقول في هذا الصدد: " كم تعاني الحيوانات من الجو والسحب المشحونة بالكهرباء l 'électricité de l'ar et des nauges ! نرى أن بعض الأصناف لها ملكة نبوئية faculté prophétique بخصوص الزمن، كالقردة les singes مثلا [...]. لا نشكك في أنه حتى عندها يصبح الآلام نبيا les douleurs sont des prophètes." [3]

ثانيا: أسباب فكرية: إذ ذهب المفكرون والفلاسفة منذ أرسطو إلى تمييز الإنسان على جل الكائنات الأخرى باعتباره حيوانا عاقلا، وعبر هذا التمييز تم النظر إلى الحيوانات الأخرى باعتبارها كائنات تخضع إلى النفس الغضبية والنفس الشهوانية، ما يجعلها بعيدة عن الرقي إلى مستوى الفكر المنطقي.

قراءة تاريخ الفلسفة مع الأخذ بعين الاعتبار نظرة نيتشه للحيوانات، تدفع القارئ للتساؤل حول هذه النظرة التي وجدت صداها في تقلبات الفكر، لاسيما أن نظرة نيتشه للحيوان هي نظرة شمولية حضرت في كل المواضيع التي عالجها بما في ذلك " أصل المنطق " و " أصل الوعي ".

الحديث عن مشكلة الوعي من منظور لا إقصائي للنوع الآخر، هو ما حاول نيتشه إستجلاءه مستندا على علم الحيوان Zoologie إلى جانب الفزيولوجيا، الأمر الذي ساعد على تدارك الشك الذي وقع فيه **لايبنز** Leibnz (1646 – 1716) من قبل، واستطعنا أن ندرك إمكانية أننا قادرين على التفكير في شيء ما أو الإحساس بشيء آخر، أو الإقدام على فعلها، دون الحاجة للدخول إلى وعينا؛ لأن هذا الأخير تابع لملكة التواصل faculté du communication لدى الإنسان كما هو الحال لدى الحيوان (ou d'un animal). الأمر الذي دفع بنيتشه إلى القول بإمكانية تخلي الإنسان

1- نيتشه (فريدريك)، إنسان مفرط في إنسانيته الجزء الأول، مرجع سابق، ص. 66

2 - Nietzsche, (Friedrich), Le Gai Savoir, traduit par Henri Albert, édition électronique (ePub) v. : 1,0 : Les échos du Maquis, 2011. p. 193. Fragment. 143

3- Le Gai Savoir, Ibd, p. 268. Fragment 316.

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

عن الوعي، إذا ما استطاع أن يعيش كوحش كاسر bête de proie. وبهذا فإن سيطرة الوعي على شعورنا وتحركاتنا راجع إلى السيادة الطويلة التي مارسها علينا مبدأ " يجب عليك "، على الإنسان. [1]

بناء على هذا المعطى، يقول نيتشه: " لقد كان الإنسان في حاجة ، وهو الحيوان المهدد أكثر، إلى مساعدة، إلى حماية protections، كان في حاجة إلى شبيه emblables، كان عليه أن يعرف كيف يكون مفهوما لكي يعبر عن ضيقه، – ولأجل هذا كان في حاجة إلى ' وعي' conscience، حتى يتمكن من معرفة ما ينقصه، وما يشعر به، وما كان يفكر فيه. [...] فكرتي كما ترون، هي أن الوعي ينتمي في العمق إلى الوجود الفردي للإنسان l'existence individuelle de l'homme، بل إلى كل ما يجعل منه طبعا جماعيا وقطعيا communauté et du troupeau، بالتالي فإن الوعي لم يتطور بشكل دقيق إلا من حيث النفع الجماعي والقطعي [...] إن طبيعة الوعي الحيواني يتضمن أن العالم الذي يمكن أن نعيه ليس إلا عالما سطحيا، عالم إشارات، عالما معمما، مبتذلا." [2]

تعاطت الثقافة الإسلامية مع سؤال الحيوان، بنفس الطريقة التي تعاملت بها نظيرتها الغربية، إذ يمكننا أن نسجل غياب الحديث عن الحيوان كمفهوم له قواعده وأسسه، الأمر الذي قد نرجئه – من منظورنا – إلى محاولة تخلص الدولة الإسلامية أنذاك من الحضارة الجاهلية، التي كانت تتغنى في أشعارها بفحولة الخيول، وصبر الجمال، وتشبيه الفرسان الشجعان بالأسد، وتسمية الاطفال بأسماء الحيوانات.

على المستوى الفلسفي، فقد يسجل حضور نسبي للحيوانات في بعض الاقتباسات المتفرقة لدى ابن عربي (1165–1240) في تمييزه بين الإنسان الكامل والإنسان الحيوان، إذ يقول في هذا الصدد: " إعلم أن جميع ما يعمله الحيوان من الصنائع وما يعلمه، ليس عن تدبير ولا روية بل هو مفطور على العلم بما يصدر عنه، لا يعرف من أين حصل له ذلك الإتقان والإحكام، كالعناكب والنحل والزنابير، بخلاف الإنسان فإنه يعلم أنه ما استنبط أمرا من الأمور إلا عن فكر وروية وتدبير، فيعرف من أين صدر هذا الأمر، وسائر الحيوان يعلم الأمر ولا يعلم من أين صدر، وبهذا القدر سمي إنسانا لا غير، وهي حالة يشترك فيها جميع الناس إلا الإنسان الكامل، فإنه زاد على الإنسان الحيواني في الدنيا بتصريفه الأسماء الإلهية، التي أخذ قواها لما حداه الحق عليها، حين حذاه على العالم، فجعل الإنسان الكامل خليفة عن الإنسان الكل الكبير، والإنسان الحيوان يزاحم الإنسان الكامل بالقوة، فيما لا يكون من الإنسان إلا بالفعل، وأن الإنسان الكامل إلا بالفعل، وأن الإنسان الكامل يخالف الإنسان الحيوان يرزق رزق الحيوان، وهو للكمال وزيادة، فإن الكامل له رزق إلهي لا يناله الإنسان الحيوان، وهو ما يتغذى به من علوم الفكر، الذي لا يكون للإنسان الحيوان، والكشف والذوق والفكر." [3] أو لدى **ابن باجة** (1080–1138) في تدبير المتوحد عند حديثه عن الإنسان البهيمي والإنسان البوهيمي بالقول: " أما ومن كان غرضه بيهميا– سواء نيل بفكرة إنسانية أو لم ينل – كان جري إنسانيته وجري البهيمة، واحد. ولا فرق بين أن يوجد حينئذ خلقته خلقة إنسان قد استبطن بهيمة، أو يكون بهيمة مفرده." [4] كما نجد بعض الاقتباسات المتفرقة لدى **الفرابي** (260 هـ – 399 هـ) سواء عند حديثه

---

1 – Le Gai Savoir, Ibd, p. 124. Fragment, 167.

2 – Le Gai Savoir, Ibd, p. 324–325. Fragment, 354.

3– إبن عربي (محي الدين)، الإنسان الكامل و القطب الغوث الفرد، جمع وتأليف، محمود محمود الغراب، الطبعة الثانية، ص–ص. 9–10

4– إبن باجة (الصائغ)، تدبير المتوحد. " ويقول إبن باجة مفرقا بين أفعال الإنسان التي ترجع إلى النفس البهيمية والأفعال التي ترجع إلى النفس الناطقة فيقول " إن الحيوان غير الناطق إنما يتقدم فعله ما يحدث في النفس البهيمية من انفعال والإنسان قد يفعل ذلك من هذه الجهة كما يهرب الإنسان من مفزع فإن هذا الفعل هو للإنسان من جهة النفس البهيمية ومثل من يكسر حجرا ضربه وعودا أخدشه لأنه خدشه فقط وهذه كلها

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

عن السيلسة أو الطبيعة. أضف إلى ذلك توسيم **الجاحظ** (159هـ—255 -هـ) كتابه ب " الحيوان " الذي عالج فيه موضوع الحيوانات بشكل شامل ومدى تأثير البيئة عليها وعلى الإنسان.

حاول الدميري إخراج كتاب شامل وسمه ب " حياة الحيوان " يتحدث فيه عن كل حيوان عن حدة بتعريفه وأجناسه، والأسماء المتداولة لكل حيوان على حدة في المجال المتداولي العربي، معتمدا في ذلك على الترتيب الأبجدي للحروف الهجائية، مخصصا لكل حرف باب يجمع الحيوانات التي تشترك فيه.[1]

بنفس الطريقة، يحذو محمد سامي عبد السلام حسانين – في كتابه " اللزوم الدلالي لأسماء الحيوان في القرآن الكريم " – لتتبع اللزوم الدلالي لأسماء الحيوانات في القرآن، وتبين كيف إستعمل هذا الأخير أسماء (الإبل والبدن والبعير والجمل والناقة والبقرة والعجل والثعبان والحية والجراد والحمار والحوت والخنزير والخيل والجياد...) إستعمالا خاصا مع الحفاظ على المعنى المتداول والمعروف عند العرب، وبّين كيف تختلف دلالة الأسماء عند حضورها كمفرد أو كجمع.[2]

إبعاد الحيوانات من المشهد الفكري، هو ما سيرسخ نتيجة نظرة فيلسوف التعاقد **توماس هوبز Thomas Hobbes** (1588–1679) إلى طبيعة الإنسان الحيوانية على أنها مكمن الشر؛ طبيعة تتميز بالتأهب للحرب والصراع، نتيجة تقلص موارد الطبيعة وزيادة رغبات الفرد التي تحط على نفس رغبات الفرد الآخر، الشيء الذي جعل الإنسان ذئب لأخيه الإنسان[3]، وقد وسمت هذه النظرة الأدبيات السياسية، وعليها تأسست قواعد تقوي من ميكانزمات الليفياثان/الوحش، والآليات التي يجب عليه أن يشتغل بها من أجل حيازة السلطة المطلقة في يديه، ولنتذكر هنا كيف طالب ماكيافيل (1469–1527) قبله من الأمير أن يكون أسدا وثعلبا في نفس الوقت حتى يتمكن من ضبط رعيته.[4]

أفعال بهيمية فأما من يكسره لئلا يخلش غيره أو عن روية توجب كسره فذلك فعل إنساني فكل فعل يفعله لا ينال به غرضا فإن كان له غرضا فإن كان له غرض ينال به لم يلحظه فذلك الفعل بهيمي وفعله عن النفس البهيمية فقط." إبن باجة الأندلسي– الفيلسوف الخلاق، سلسلة أعلام الفلاسفة، الجزء الأول، إعداد الشيخ محمد كامل محمد محمد عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ص. 172.

1– الدميري (كمال الدين محمد بن موسى) حياة الحيوان الكبرى، تهذيب وتصنيف، أسعد الفارس، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق– أوتوستراد المزة.

2 - عبد السلام حسانين (محمد سامي)، اللزوم الدلالي لأسماء الحيوانات في القرآن، الإعجاز والتفسير، بورصة الكتب، الطبعة الأولى 2014.

3– لبيب (عبد العزيز)، نظرية العقد الاجتماعي من هوبز إلى روسو، مجلة تفاهم، حقوق الله وحقوق العباد: الحرية والمسؤولية، العدد 39، تصدر عن وزارة الاوقاف والشؤون الدينية، سلطنة عمان–مسقط. ص–ص، 116–115.

4 – مكيافلي (نيكولا)، الأمير، ترجمة، جمال ابراهيم، الحرية للنشر والتوزيع، ميدان عرابي – القاهرة، ص، 140–139. يقول: " وعلينا أن ندرك أن ثمة سبيلين للقيام بأعمال القتال، أحدهما بواسطة القانون، والآخر عن طريق اللجوء إلى القوة والبطش، وإذا ما نظرنا إلى البشر نجد أنهم يلجأون إلى الطريق الأول، أما الحيوانات فتلجأ إلى الطريق الثاني، ولكن لما كانت الطريقة الأولى غير كافية لتحقيق الأهداف التي يصبو الأمير إلى تحقيقها، فإن عليه أن يلجأ – تبعا لذلك – إلى الطريقة الثانية. ونجد أنه من اللازم والضروري للأمير أن يعمل على إستخدام كلتا الطريقتين معا، أي طريقتي الإنسان والحيوان، ولذلك نجد أن قدماء الكتاب قد نصحوا الحكام في الماضي باستخدام الطريقتين، مستشهدين بأخيل وغيره من الأمراء القدماء الذين عهد بهم شيرون القنطور الخرافي (الحيوان) تربيتهم وتعليمهم على نظامه. وهذا الرمز الخرافي نصف الإنسان ونصف الحيوان، قصد منه أن يشير إلى أن الأمير يجب عليه أن يتعلم الطبيعتين الإنسانية والحيوانية، وأن إحداهما لا يمكن أن تعيش بدون الأخرى. بل يجب أن تسيرا جنبا إلى جنب.

وفي رأينا أن الأمير الذي يجد نفسه مجبرا على تعلم طريقة الحيوان، عليه أن يقلد الثعلب والأسد معا، إذ أننا إذا نظرنا إلى الأسد نجد أنه لا يستطيع حماية نفسه من الشرك الذي ينصب له، والثعلب يفشل بالدفاع عن نفسه أثناء مواجهة الذئاب، ولذلك يتحتم عليه – الأمير – أن يتصرف كثعلب حتى يتمكن من تجنب الفخاخ، وكالأسد حتى يستطيع إرهاب الذئاب. "

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

تجددت الدعوة لاستئناف السؤال عن الحيوانات في العصر الحديث، بعدما غيبها العصر الوسيط في مشهد مشحون بالدعوى إلى معرفة الله، ومحاولة سيطرة الكنيسة على هذا المطلب، والصراع القائم بين التيار الكاثوليكي والتيار البروتستانتي، ليضع روني ديكارت (1596-1650) السؤال عن الحيوان من بين اهتماماته الفلسفية التي سيحاول معالجتها في مشروعه " مبادئ الفلسفة "، إلا أنه سيتخلى عن هذا السؤال في الأخير- لقلة ما لديه من تجارب - ليكتفي فقط بالنظر في المعرفة والعلوم الأخرى.[1]

بيد أن إعادة الإشارة إلى سؤال الحيوانات في المشهد الفلسفي، سيعيد استئناف النظرة الطبيعية لهذه الحيوانات واستلهام طريقة عيشها لمعرفة الحالة التي كان يعيش عليها الإنسان في حالة الطبيعة، وهو الأمر الذي قام به **جان جاك روسو**(1712-1778)- على ماييدو - في كتابه " العقد الاجتماعي" عندما تنبه إلى أن الحديث عن التجزئة والملكية وبالتالي الإنتقال إلى السيادة، أتى نتيجة إعلان فرد ما بأن هذه التجزئة أصبحت له (الملكية)، وهو الأمر الذي يمكن أن نفهمه اليوم إذا ما أمعنا النظر في سلوك الأسد وهو يزأر منبها الحيوانات الأخرى من نوعه بعدم الاقتراب إلى الحدود التي يتجول فيها.

لعاد الخيال إقحام الحيولنات إلى مجال الأدب والشعر لحظة الرومانسية، فقد اقتحمت الحيولنات مجال الفن، وكلنت موضوعا لمجموعة من اللوحات الفنية، **لجورج ستابس** (1724-1806)، مثلا الذي أبدى اهتماما للحيوانات في لوحاته.

استئناف السؤال عن الحيوان كمنطلق هو الموضوع الذي سيطفو على السطح، وسيستحوذ على أقلام المفكرين لمدة طويلة، عندما أسس **داروين** (1809-1882) نظريته حول التطور، لإعلانه أن الإنسان لا يشترك فقط في خصائص مع الحيوان، بل إنه ينهل وإياه من نفس الأصل. ولعل ما يميز هذه اللحظة هو محاولة معالجة السؤال لا بطريقة فلسفية فقط، بل إن الإشكال كان محط اهتمام باقي العلوم الأخرى خصوصا البيولوجيا والفيزيولوجيا منها.

سفينة زارا

أمام هذا الحضور الباهت للحيوانات في المتن الفلسفي، يجدد نيتشه اللقاء بالحيوانات، لا كموضوع مطروح للمعالجة، بل كرفقاء لرحلة زارا للبحث عن الإنسان المتفوق، وناطقين بحكمته، وممثلين لقدوته — النسر والأفعوان -، إنها " لا تعبر في الغالب عن مجسمات أو خيال بقدر ما تعبر عن رموز يترجمون الرؤية الأسطورية لنيتشه التي تحترم كل المعاني لخلق قيم جديدة، وذلك بفضل الاستعارات التي تكشف خبراته الفكرية والحساسة عبر التعبير عن العيش في تأويلاته."[2]

1- ديكارت (روني)، مبادئ الفلسفة، ترجمه وقدم له وعلق عليه، عثمان أمين، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الطبعة الاولى، ص. 46. يقول: " [...] ولكي أنهض بهذا المشروع وأمضي فيه حتى غايته ينبغي فيما يلي أن أفسر كذلك طبيعة كل واحد من الأجسام الأخرى الأخص والموجودة على الأرض، أعني طبيعة المعادن والنبات والحيوان وخصوصا الإنسان، ثم يجب أن أبحث بحثا دقيقا في الطب والأخلاق والميكانيكا. هذا ما ينبغي أن أعمل لكي أعطي الناس بناء فلسفة للفلسفة تاما ولا يخامرني بعد شعور بأني بلغت من كبر السن، ولا من عدم الاطمئنان إلى قواي، ولا من البعد عن معرفة ما يتبقى مبلغا يحول دون الإقدام على إتمام المشروع إذا توافرت لدي إمكانية القيام بجميع التجارب التي أحتاج إليها تأييدا لاستدلالي وتبريرا لها." رسالة من المؤلف ديكارت إلى مترجم الكتاب إلى الفرنسية الأب بيكو. ص.ص. 46-45.
يقول المترجم في تقديمه للكتاب: " [...] وكان في نية ديكارت أن يجعل كتاب المبادئ في ستة أجزاء: " مبادئ المعرفة- مبادئ الأشياء المادية — السماء — الأرض النبات والحيوان — الإنسان. " ولكنه لم يستطع اتمام الجزئيين الأخيرين لقلة ما لدية من التجارب، فقنع بالاجزاء الأربعة الاولى التي يشمل أولها الميتافيزيقا، ويشمل ثانيها وثالثها ورابعها الفيزيقا المؤسسة على تلك الميتافيزيقا." ص. 11.

2- Claude Stéphane PERRIN, Nietzsche: l'aigle et le serpent de Zarathoustra, 19 Octoubre 2012, P. 3.

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

قد يبدو هذا التوظيف – توظيف نيتشه للحيوانات – للهولة الأولى، على أنه لغة مجازية تزين الكتابة الشذرية التي يكتب بها نيتشه، إلا أن التحولات الثلاثة التي تحدث عنها في معرض كتابه " هكذا تكلم زرادشت "، تظهر مدى وعي نيتشه باشتراك هاته الحيوانات في خصائص مع إنسان العصور الوسطى وإنسان الفترة الحديثة، الشيء الذي يخرج هذا التوظيف من مهمته المجازية، ليعبر عن موقف إزاء " الإبيستيمية " التي تسيطر على ذلك العصر.

هذا الوعي، أتى نتيجة عيش زارادشت مع الحيوانات الأخرى من حوله بشكل ودي (النسر والأفعوان)، وبلحظات مغذية ومنعشة تجعل نيتشه متخفيا خلف هذه الصورة التي تحرك أفكاره الأكثر غموضا حول إرادة القوة والعود الأبدي، وتناقضات الحياة والقيم الجديدة التي يسعى إليها. لهذا نجده في كتاباته يضاعف كل العلاقات الممكنة بينه وبين بطله الأسطوري زارادشت من جهة، والطبيعة والحيوانات والبشر من جهة أخرى، في جنون إبداعي، يجمع عبره كل الفضائل بما في ذلك الحيوانات.

يبدو أن « الإرتباط الحساس بتناقضات الحياة، وتألق لستعارته لا يحل دائما محل الثبات المستمر لعلاقته اليومية مع الرجال، [...] بل إن نيتشه يحلم بالقرب من زرادشت، إذ يدرك نفسه كطائر، لأنه يعرف كيف يمنح لنفسه أجنحة ليعيش نشوة فكر مخمور من الشمس. ثم تتحدد رغباته مع ما يطير، يسرق، يزحف، وبالتالي يشككك في حكمة وجنون زارادشت." [1]

السعي إلى الطيران، والرغبة في الزحف، أو بكلمات أخرى، محاولة التمتع بصفات النسر والأفعوان، يفتح لنا اليوم زاوية أخرى لفهم شخصية نيتشه المستعصية عن الفهم، وذلك عبر النظر إلى هاته الحيوانات التي جعلها نيتشه قدوة له؛ فمن جهة:

- " يظهر النسر على أنه يعرف كيف يهمين بقوته الذكورية على الفوضى والهدوء، من خلال رحلته السريعة كالبرق وانتشار جناحيه كالسهم، ويمكنه دائما الانتصار على مخاوفه وقلقه، على أية حال بدون نفاد الصقر، ولا أصابع النسور المدمجة. يعطيه نيتشه نظرة ونظرة خاصة. لهذا يشارك في حزن زارادشت، ويفضل أيضا الأطعمة الصحية، مثل لحم الحمل، بدلا من نسر حنون جودي.

- كما يستطيع الثعبان زارا أن يطرح مجموعة من التناقضات، مع الحفاظ على لثامه ومسافته البعيدة، لأنه لا يريد أن يكون في حوزته، وهو يعلم أن الشر سوف ينتقل بالضرورة من خلال تحقيق جميع التحولات المتناقضة لتصير الطبيعة نحو براءتها. إنه يعلم علاوة على ذلك، مصير الأحياء، ولذا فهو لا يدع نفسه محاصرا في لعبة الذكاء المجرد، الذي يصادف الجثث فقط... إنه يؤكد عودة حتمية للزمن التي تظهر فيه كل الأشياء." [2]

بهذه الميزات يحاول نيتشه جمع النسر والأفعوان في صورة رمزية، تجعل من المتناقضين (الأول يطير، والثاني يزحف) يكملان بعضهما للاستلاء على الطبيعة بتجلياتها، ويعبران عن تمنعهما في العيش داخل ثقافة القطيع، مع سيطرة الأول عن السماء، واستلاء الثاني عن الأرض. إنها لوحة أسطورية يستلهمها نيتشه من طقوس الفيدا " التي يبدي فيها النسر والأفعوان معارضة للسماء والأرض، إذ يحوم النسر في دوائر واسعة من أجل تكريس التحول الفضولي في حب الظهيرة العظيمة، بينما يبقى الأفعوان معلق على النسر، لا كفريسة، بل كصديق لأنه كان ملفوفا حول عنقه." [3]

1- Nietzsche : l'aigle et le serpent de Zarathoustra, Ibd, p.2.
2- Nietzsche : l'aigle et le serpent de Zarathoustra, Ibd.
3- Ibd.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

نيتشه وحماره

علاقة نيتشه نفسه بالحيوانات؛ علاقة رسخت في حادث 1889، المعروف باحتضان نيتشه للحمار المجلود، محاولا إنقاذه من سوط جلاده، ليدخل بعدها في حالة من الصمت، حالة فسرها البعض بأنها النقطة التي دفعت نيتشه نحو الاضطراب والجنون.

قد يبدو هذا الحادث عارضا للوهلة الأولى، ولا يمكن الأخذ به كجانب موضوعي لبناء مقاربة فكرية عليه، إلا أن دخول نيتشه في حالة من الصمت، والتوقف على الكتابة بعد ذلك يدعم هذه الفرضية. كما أن المتتبع لأفكار نيتشه والمطلع على كتاب هكذا تكلم زرادشت، يجد أن علاقة نيتشه بالحمار، هي علاقة وطيدة وسمت بعيد يحتفل به أصدقاء نيتشه محطموا الألواح، سمي هذا العيد ب " **عيدالحمار** ".[1]

قد يكون لقاء زارا الأول بالحمار أتى متأخرا في المتن الزرادشتي، إلا أن خصوصية هذا اللقاء تكمن في كونه أتى نتيجة مغادرة زارا لمغارته، بغية البحث عن الإنسان المتفوق. بل إن خصوصية اللقاء تُستمد من السؤال الذي طرحه زارا حول الحمار " يا للغرابة إنني أرى ملكين، ولا أرى إلا حمارا واحد؟ "

لقاء زارا بالحمار سيفتح القارئ عن خصوصية أصدقاء زارا من جهة (ملك الميمنة والميسرة، والساحر الشيخ، ورئيس الأحبار، والمتسول، والظل وضمير العقل، والعراف والحزين والحمار)، إذ يلاحظ القارئ اختلافهم وتباينهم في المواقف، بل إن ترتيبة اللقاء بهم تفتحنا على آفاق متداخلة تتسم بالجدل السيالكتيكي بدءا من الملك الذين يتسمون بالعظمة، مرورا بالساحر الذي يتظاهر بها، وصولا إلى المتأسف عن موت الإله، وقوفا عند المفتخر بقتله، منتهيين بواحد يأبى التسول، والآخر غادر المجتمع ليتسول. من جهة أخرى يفتحنا هذا اللقاء، في كون أن زارا نفسه يحترم حكمة الآخرين ويستعلم عن أشياء غابت عليه.

بيد أن ما يفسر المشهد الذي أتيت على ذكره في السابق – دخول نيتشه في حالة من الصمت بعد معانقة الحمار –، يعززها كون أن الحمار هو الحيوان الوحيد الذي رافق الرجال الراقون في المغارة، وشاركهم ما سمي في الأدبيات التاريخية، " بالعشاء السري "، واستمع لحديث زارا حول الإنسان الراقي، وهو الشرف الذي لم تحظ به الحيوانات الأقرب من زارا " النسر والأفعوان ".

للمدهش في هذه العلاقة، أعني علاقة نيتشه بالحمار، هو إقدام الرجال الراقون على عبادة الحمار، وتنصيبه إله جديد، يركعون ويسجدون له في قلب مغارة زارا، وهو الذي يرفض عبادة الأوثان، إلا أنه بعد الاستماع إلى الرجال الراقون واحد تلو الآخر، ومساءلة حججهم، ودعوى تنصيبهم إله جديد، دعى نيتشه أصدقائه بالقول: " أيها الأصدقاء الجدد، يقول، –أيها الرجال الغرباء، المتفوقين، إنني لأعجب الآن بكم، لقد عاد الفرح على مُحياكم، والحق أن وجوهكم جميعا قد ازدهرت، وقد حق لكم كأزهار أن تقيموا عيدا جديدا– عيد الحمار–، فإذا ما أردتم أن يأتي زارا بالمرح والجنون لنير أرواحكم، لا تنسوا هذه الليلة، وعيد الحمار هذا. أيها الرجال الراقون لقد أبدعتم فيما اخترعتم، وما يوجد مثل هذه الأعياد إلا للناهقون لأنها علامة بالشقاء، وإذا احتفلتم بهذا العيد، عيد الحمار، مرة أخرى، فافعلوا ذلك حبا في أنفسكم وحبا بي !افعلوها لذكراي."[2]

---

1 - Nietzsche, (Friedrich), Ainsi parlait Zarathoustra, traduire et commentaires par Georges-Arthur Goldschmidt, Le Livre de Poche classiques, p, 365.

2 - Nietzsche, (Friedrich), Ainsi parler Zarathoustra, Ibd, p. 369.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

إن هذه العلاقة، أعني علاقة نيتشه بالحيوانات، ليست علاقة يمكن اختزالها في الحادث السالف ذكره، أو أنها علاقة بين جنسين مختلفين، بل هي علاقة تعبر عن موقف إزاء نموذج من الإنسانية رسمت معالمها المدرسة القديمة (الأفلاطونية / الكنيسة)، ورسخها العصر الحديث، إذ سعت الأولى إلى إقبار الطبيعة الحيوانية في الإنسان، واحتقار شهواته ورغباته، بل وحثه على كره الحياة والزهد في هذا العالم، ابتغاء تسلق المراتب للوصول إلى عالم الله أو عالم المثل. (موقف ديني)

تم وضع الطبيعة الحيوانية مع الإنسان الأسد – قاتل الألوهية القديمة – في عصر الحداثة، كمقابل لارتقاء الإنسان الحديث الذي استطاع أن يتخلص من التعاليم القديمة، ويغادر الحجر بلغة التنوير، ليصيح بكل افتخار بعبارة " أريد " ويبني لنفسه مؤسسات الدولة. ولإعطاء هذه المؤسسات مشروعيتها صور بعض فلاسفة التعاقد – هوبز – حالة الطبيعة – وهي حالة حيوانية – بأنها حالة فوضى وحرب، وحب تملك ناتج عن الطبيعة الحيوانية للإنسان؛ هذا التصور لا يريد الوقوف عند الطبيعة الحيوانية لإبراز خصائصها، بقدر ما أعتبر موقفا متحيزا من الطبيعة الحيوانية بغية إعطاء مشروعية للوحش (الحكومة/ الدولة) الذي خلقه إنسان الأسد. (موقف فكري)

علاقة نيتشه بالحيوانات، لم يوظفها كموقف إزاء الإنسانية فقط، بل هي كذلك إزاء مؤسسات قائمة، حاولت ترسيخ منظومتها عن طريق نظام معرفي أخلاقي يشتغل وفق ثنائية الخير والشر، الثواب والعقاب، الذنب والجزاء، المغفرة والفضيلة... إلخ. ثنائيات وجد نيتشه دلالة لانتقادها عبر تشاركها في خصائص مع مجموعة من الحيوانات (كثرة الفضائل مثلا يشبهها نيتشه بالعقرب الذي يقتل نفسه عندما يقترب من النار).

لعل ما يوطد صحة هذه العلاقة – علاقة نيتشه بالحيوانات –، هو استعمال نيتشه الكثيف للحيوانات في كتابه " هكذا تكلم زرادشت "، وتصنيفها في خطاباته إلى حيوانات مفترسة، تنتمي إلى ثقافة القطيع (البقر، الحشرات السامة، الخنزير، الكلاب)، وحيوانات ماكرة ومفترسة، تعيش منعزلة عن القطيع، (الأفعوان والنسر) كما هو حال زارا نفسه، والحفاظ على رمزيتها في باقي كتبه، سواء تعلق الأمر ب " ما وراء الخير والشر "، أو " جينيالوجيا الأخلاق " أو " فجر " أو " العلم المرح "، أو " أفول الأوثان ". قد تكون هناك استثناءات في بعض المواقع، إلا أن تغير الرمز لا يؤدي بالضرورة إلى تغير الدلالة التي انطلق منها.

التصنيف الفاصل بين الحيوانات المفترسة وحيوانات القطيع يصبح متجاوزا كذلك، ومسلما به، خاصة بعد وضع نيتشه لكل من النسر والأفعوان، كرفقاء له في تبشيره بالإنسان المتفوق، بل يذهب إلى حد وضعهم كمعبرين على حكمته من جهة، وملجأ يلجأ له كلما لستشعر بالضعف أو بالغضب من موقف ما من جهة أخرى؛ حتى ذهب إلى حد وضعهم كقدوة له، إذ يقول: " لقد وجدت من المخاطر بين للناس على نحو أكثر مما وجدته بين الحيوانات. (يتابع) ... لأكون أوفر حكمة، لأكون ماكرا كأفعواني، غير أنني أطلب المستحيل لذلك أتوسل إلى افتخاري أن يلازم حكمتي ولا ينفصل عنها."[1]

إنسان الجمل*:

1 – *Ainsi Parler Zaratoustra, Ibd. P.p. 34- 35.*

*– *الإبل: بكسر الباء الموحدة وقد تسكن للتخفيف. الجمال: وهو اسم واحد يقع على الجمع وليس بجمع ولا اسم جمع، وإنما هو دال على الجنس كذا قاله ابن سيدة، وقال الجوهري: ليس لها واحد من لفظها وهي مؤنثة؛ لأن أسماء الجموع التي لا واحد لها من لفظها إذا كانت لغير الآدميين فتأنيث بها لازم، وإذا صغرتها أدخلت عليها الهاء، فقلت: أبيلة وغنيمة ونحو ذلك. [...] والإبل من الحيوانات العجيبة وإن كان عجبها سقط من*

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

الانسان هو الحيوان الاكثر إعاقة والاكثر هشاشة، وهو المنحرف عن غرائزه على نحو أكثر خطرا

نقيض المسيح، ص 42

يذهب القول هنا، إلى استعادة الحيوانات من مملكة النسيان، بعد القطع معها ابتداء من تأسيس الأكاديمية الأفلاطونية. تأسيس سعى لا إلى بناء صرح فلسفي جديد نحى إلى القطع مع الملحمات الديونوزيسية، والمسرحيات التراجيدية؛ بل إنه تأسيس أقام طوق/سياج على علاقة الإنسان بالحيوان التي كانت مقدسة عند فلاسفة الإغريق القدماء، الذين كانوا في تماس مستمر مع الحيوانات، عبر الاغتسال بدمهم، أو محاكاتهم في الرحلة التنافسية في المسابقات الأولمبية، بل إنها شكلت لديهم أيضا ذاكرة تذكرهم بشدة التنافس، والصراع، والأموات...إلخ.

تغييب الحيوان من المشهد الفكري، منذ أفلاطون قابله إقبار للجسد وكبح للشهوة، وقتل للحواس، وزهد في الحياة، وتدجين للعقل والتعامل معه كخزان قابل للشحن والتخزين دون البث في المعلومات المخزنة فيه، تحت ذريعة أن كل ما تم بثه فيه هو واجب لا يقبل إعطاء الرأي فيه.

أمام هذا المعطى، يقف نيتشه عند الحيوان الأول في سفينته — سفينة زارا –، وهو ما سمي في المتن النيتشوي بالإنسان الجمل. إنه حيوان يعبر عن إنسان العصر الوسيط، وبداية العصر الحديث، إنسان أثقلته الكنيسة بنظام أخلاقي معصوم من النظر والبث في المضامين التي تؤثثه، ولا يقوى على الإمعان فيها، حيث أن كل ما يحتاج إليه هو الإيمان، أو لنقل بلغة ذلك العصر، أن الإنسان الجمل لا يسمع إلا للقاعدة المحبوكة على الشكل التالي: " آمن لتتعقل".

لجعل إنسان الجمل، ينضبط لهذا السلوك، ويتقبله بنوع من البداهة، اختار الحيوان المفترس (الكنيسة)، أن يرسم قاعدته ضمن طبقة " الشندلا " لإقناعهم بأفكاره، واضعا قاعدته على الشكل الآتي: " لا يهم أن نعرف إن كان أمرا ما حقيقة أم لا، لكنه سيكون من الأهمية بمكان أن يعتقد فيه كحقيقة. "[1] هكذا يجد إنسان الجمل نفسه تحت وطئة هذه القاعدة التي تضع الإيمان في مقابل الحقيقة، وأن الطريق أمام البحث والمعرفة والحقيقة يعد ممنوعا. أي أن المطلب حين يقترن بالحقيقة يعد محظورا ويتسم بالخطيئة.

" 'المؤمن ' ليس ملكا لنفسه ولا يستطيع إلا أن يكون وسيلة؛ ينبغي ان يستعمل، وهو في حاجة إلى أحد يستعمله. غريزته تغمر أخلاق نكران الذات بآيات الاكبار: كل شيء يدفعه إلى تلك الأخلاق، ذكاؤه وخبرته وغروره. كل نوع من الإيمان تعبير في حد ذاته عن نكران الذات وعن الاغتراب..."[2]

أعين الناس لكثرة رؤيتهم لها؛ وهو أنها حيوان عظيم الجسم سريع الانقياد ينهض بالحمل الثقيل ويبرك به وتأخذ زمامه فأرة، فتذهب به إلى حيث شاءت،...إلخ. الدميري، حياة الحيوان مرجع سابق، ص. 20.

***– لم يستعمل نيتشه هذا التعبير المجازي – سفينة زارا –، بل إن توظيف هذا التعبير راجع لإستلهامي سفينة نوح، ويستند هذا التأويل على الطريقة التي وسم بها نيتشه بعض كتاباته خصوصا " هكذا تكلم زرادشت " أو " هذا الإنسان "؛ طريقة تضمر رد نيتشه على سقراط والأنبياء الذين لم يكتبوا، بل تكلم أتباعهم بالنيابة عنهم.*

1- نيتشه (فريديرك)، نقيض المسيح، ترجمة علي مصباح، منشورات الجمل، بيروت–بغداد، الطبعة الاولى 2011، ص. 55

2- نيتشه (فريديرك)، نقيض المسيح، ترجمة علي مصباح مرجع سابق، ص. 123.

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

اختيار إنسان الجمل للإيمان يعززه أمل في حياة فضلى في عالم السماوات، الذي صُور له من طرف الحيوان المفترس بأنه عالم الحق والفضيلة والسعادة، ولكي يكون هذا الأمل مقنعا، يجب أن يتناقض بالضرورة مع هذا العالم الواقعي الذي يشوبه النقص والزوال، لدى فإن " الأمل القوي حافز لحياة أكبر بكثير من أي سعادة متحققة في الواقع. وبالتالي ينبغي أن يقدم للذين يتأملون سندا عن طريق أمل لا يناقضه أي واقع، – أمل لا يضمحل في إنجاز ما: أمل ما ورائي..."[1]

كيف يتم ذلك؟ عن طريق مطالبة الإنسان الجمل أن يتحلى بخصائص السلحفاة، ويقوم بسحب حواسه إلى الداخل، ويحتقر كل الغرائز والرغبات والشهوات التي تشده إلى الأسفل، وبتهميش الجسد وتنقية الروح، وأن يزهد في هذه الحياة، ويسعى إلى تسلق الدرجات ابتغاء الوصول إلى عالم الله؛ العالم الذي يعد بالسعادة والخلاص والحياة الحقة، حيث يستشعر الإنسان الحياة العظيمة، الممتلئة بأحسن الفضائل.

بهذا المعنى، يكون إيمان إنسان الجمل هو أن" لا يريد المرء معرفة ما هو حقيقي... غريزته تتطلب ألا يكون للحقيقة من اعتبار في أي موضع. [فما] ' يجعل الإنسان مريضا فهو خير، وكل ما يأتي من الامتلاء وزخم الامتلاء ومن القوة فهو شر' : هكذا يكون إحساس المؤمن."[2]

لزرع هذا التوجس في نفسية الجمل، اختار الحيوان المفترس، أن يكسر النظام الطبقي الذي ابدعته الطبيعة، ليضع أقدامه موطئ الطبقة السفلى حتى يتمكن من أن يحدو مع قطيعه حذو النعل بالنعل، ويظل قريب منهم، حتى يقنعهم بضرورة أن يستشعر المرء أنه مريض، وأن يتجه بخطابه إلى " كل رهط من المحرومين الذين لم ينالوا نصيبهم من الحياة؛ وكان لهم حلفاء في كل مكان. "[3] إذ جعل هذا الحيوان المفترس من ضغينة المرضى ومعاداة المعافين والصحة السليمة أساسا صلبا يضع عليه أقدامه.

سعى الحيوان المفترس أن يقنع الجمل بعالم آخر، العالم الذي تتجسد فيه الحقيقة المطلقة، والروح الخالصة والكمال، كمقابل للعالم الأرضي الذي يشوبه النقص والزوال. أمام هذه التقابلات بين العالمين يجب على الجمل أن يعاني في عالم الأرض نتيجة جسده المتسخ، وأن يشعر بالإثم والمعاناة من نفسه، والاحتقار اتجاه الآخر، " لأن هناك عزاء متفرد نثبته عبر معاناتنا، " عالم الحقيقة " أكثر عمقا من العالم الآخر، لذلك يفضل المرء أن يعاني كثيرا حتى يشعر أنه يتفوق على هذا الواقع (من خلال وعيه من اقترابه ' لعالم الحقيقة الأكثر عمقا ' أن نعيش بدون معاناة وأن نحرم من الشعور بالتفوق. وبهذا يكون الفخر والطريقة المعتادة لإشباعه هي التي تعارض المفهوم الجديد للأخلاق." [4]

إخضاع الحيوان المنحط لهذا النظام الأخلاقي، أعني هنا إنسان الجمل الذي افتقد غرائزه، واختار أن يبجل ما هو مضر به، تطلب من الحيوان المفترس — لزوما – أن يبتدع نظاما للخير والشر يُظهر موضوعية الحالة التي يستشعر بها إنسان الجمل، نظام يكون مختلف عن الأنظمة التي تجاوره، حتى يشعر الجمل بأن المعتقد الذي يؤمن به مختلف عن هذا الواقع المتغير من جهة، وأن

1- نقيض المسيح، نفس المرجع، ص. 55.

2- ، نفس المرجع، ص. 118.

3- نفس المرجع، ص. 116 يقتبس نيتشه " ومرة أخرى أذكر بهذه المقولة ذات الأهمية البالغة لبولس: " لقد إختار الله ضعفاء العالم وفضلهم، وإختار الجهال وأدنياء العالم والمزدرى بهم وفضلهم."

4 -Nietzsche (Friedrich), Aurore, traduit par Henri Albert, édition Guinefort, p. 29. Fragment. 33.

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

بسبب مرضه ناتج لا عما هو خير، بل راجع إلى كل ما هو شر؛ هذا الأخير مرتبط بالضرورة بهذا الواقع الذي تملأه أحلاسيس الشهوة، والرغبة والغرائز.

سعى نيتشه إلى إبراز معالم هذا النظام، من خلال النظر إلى طبيعة حيواناته الفلسفية، التي كشفت الميكانزمات التي يوظفها هذا النظام في كل حقبة، وفي كل عصر، ووفق الحاجة التي يحتاج إليها كل حيوان لترويضه وتدجينه، وجعله يشعر بالاحتقار من نفسه. إنه نظام — حسب نيتشه — أعاد إحياء ما كان في عصر ما يعتبر شرا وجعله خيرا، وما كان في عصر آخر خيرا ليجعله شرا، حتى يتمكن من نشر ثقافة القطيع على لبنة تبدو للمنخرط فيها موضوعية.

والحال، أن هذا النظام الذي ابتدعه هذا الحيوان الكريه- بتعبير نيتشه -، إذا ما أمعنا النظر فيه يقلب موازين المعرفة ويجعل من كل ما هو حقيقي يعد كاذبا، وما هو كاذب يعتبر صادقا، إذ " حيثما استقر تأثير اللاهوتيين يكون الحكم القيمي مقلوبا على رأسه، ويكون مفهوما " الحقيقة " و" الخطأ "، معكوسين بالضرورة: ما هو أكثر ضررا يسمى هناك " حقيقة "، وما يرفع من شأنها، وينميها، ويستجيب إثباتا إلهيا، ويبررها ويجعلها تنتصر، يسمى خطأ. "[1] وبهذا لا تغذوا الأخلاق سوى تفسير لبعض الظواهر؛ تفسير كما تبين لنا أنه خاطئ ولا يمثل الواقع، بل يمقته.

وعليه، لنتأمل الحال الذي وصل إليه إنسان الجمل من خلال ما تم شحنه به، لنستنتج طبيعة هذا الحيوان المتثاقل، لقد جعلت الكنيسة حيوان الجمل يبني تصوره لحياته من خلال ثلاثة قواعد، أولها: ضرورة التحلي بالإيمان في مقابل التوجه نحو البحث والمعرفة والحقيقة، هذا التقابل بين الإيمان والحقيقة، يخفي تقابل آخر يكشف عنه قرن الخنزير، يتجسد في التقابل بين ضعف النباهة والذكاء. وبالتالي فإن ضرورة التحلي بالإيمان، هو ضرورة الاعتراف بضعف النباهة حتى يكتمل المشهد الذي شُحن به الجمل، والذي يضع الرب على قمة الهرم باعتباره يجسد الكمال والحق الذي يصبو إنسان الجمل من خلال تسلق المراتب إلى التقرب إليه.

حتى يتمكن إنسان الجمل من التقرب إلى مملكة الرب، عليه أن يتعلم قول " لا "، -القاعدة الثانية-؛ " لا " في وجه الغرائز والرغبات والشهوات التي تثقله وتشده إلى الأرض، هذه الغرائز منبعها الجسد والحياة، لدى وجب عليه أن يحتقر الأولى ويزهد في الثانية. ولكي يتم ذلك يجب أن يخضع للقاعدة الثالثة التي تأمره بالقول " يجب عليك أن تقوم ب " و " لا يجب عليك أن تقوم ب ".

لذلك جعل نيتشه، من فلسفته ومن أصدقائه، محطمو الألواح، أو العقول الحرة، يراهنون على قول " نعم "، أو كما يقول نيتشه " (...) أما نحن، الآخرون، نحن اللا-أخلاقيين les immoralistes، على العكس من ذلك، فقد فتحنا قلبنا الكبير لكل فهم/تفكير Compréhension، لكل تعقل، ولكل موافقة — لا نحب أن نقول لا، نراهن بشرفنا لنكون أولئك الذين يقولون " نعم ". بل نعرف بشكل جيد كيف ندرك هذا النوع من الاقتصاد الذي ما يزال في حاجة إلى كل ما ترفضه لا-عقلانية déraison القس المقدسة، عقلانية القس المريضة: لا تدرك هذا الاقتصاد في قوانين الحياة، بل تعرف كيف تستفيد من هذا النوع الحيواني المشمئز Zoologique، من القس، من إنسان الفضائل vertueux ."[2]

1- نقيض المسيح، مرجع سابق، ص. 34.

2 - Nietzsche (friedrich), Crépuscule des idoles, traduit par Jean-Claude Hémery, éditions Gallimard, p. p. 36-37.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

التقابل الذي وجد إنسان الجمل نفسه يفكر عبره، هو لستمرار للثنائية الأفلاطونية بحلة دينية أخلاقية، حلة أبدعت أخلاق مضادة للطبيعة، وذهبت للاشتغال بأداة " الاستئصال " لكي تقوم بالعلاج من الجذر.... وبهذا، فإنه " منذ أفلاطون اتبع كل اللاهوتيين، وكل الفلاسفة المسار نفسه، أعني أن ما اعتبره الأخلاقيون " غريزة " l'instinct، أو كما يسميه المسيحيون ' الإيمان ' « la foi »، أو كما أسميه أنا ' القطيع ' " le trapeau" هو ما انتصر إلى حدود اليوم."[1]

يبدو أن " الأخلاق المضادة للطبيعة، أي تقريبا الأخلاق الملقنة، العظيمة، المُبشر بها إلى اليوم، تذهب على العكس تماما، ضد غرائز الحياة [...] إنها إدانة سرية تارة، وعنيفة ومحطمة لهذه الغرائز تارة أخرى. بقولها لا. " إن الإله يمعن/يحقق في القلوب " Dieu sonde les cœurs » تقول " لا " أمام أدنى الشهوات، كما تقول " لا " لأعلى أماني الحياة، لتضع الإله عدوا ennemi للحياة..." [2]

وضع عالم الله – أو العالم الثاني – كمقابل لعالم الأرض من طرف الحيوان المفترس، يجعلنا نفترض – مع نيتشه – أن عالم الأرض هذا من حيث قوته وإرادته، يشكل طرفا يوازي العالم الثاني في قوته، وهو الشيء الذي لم ينتبه إليه الحيوان المفترس في تقسيمه للعالم إلى عالم يشوبه النقص، والآخر يجسد الكمال الغائب في عالم الأرض. وبهذا يفرض هذا التفكير المؤسس على الثنائيات إلى مساءلة عالم الأرض والتفكير فيه من منظور السلب، أعني التفكير في النظام المعرفي الذي يؤثثه كنقيض للأساسيات التي اتثث النظام الذي أبدعه الحيوان المفترس، وهو الشيء الذي سنحاول إبرازه مع الحيوان الثاني من سفينة زارا.

إنسان الأسد*:

لم يكتفي نيتشه بالوقوف عند الجمل فقط، بل سعى إلى مقاربة سؤال الحداثة من خلال الوقوف عند حيوان ثانٍ من حيوانات نيتشه الفلسفية، المتمثل في إنسان الأسد (إنسان الحداثة)؛ حيوان ظنّ بأنه وعى بفساد المنظومة التي قيدت إنسان الجمل وحالت دون استعماله لعقله، لذلك ناد هذا الأخير بضرورة مغادرة الحجر، والتحرر من ثقله، مطالبا إياه باستعمال عقله الخاص. ضرورة تفرض ترتيب الأولويات بالتمركز على الذات لا على الله، وقلب القيم، وسن سنن جديدة، والقطع مع الأوامر؛ وبدل الانصياع إلى أوامر من قبيل " يجب عليك "، وجب الزئير ب " أريد "؛ إرادة تعبر عن شوق إنسان الأسد إلى الحرية. أو لنقل بعبارة زارا " في السابق، كان العقل يحب كلمة " يجب عليك "، كأنها أقدس حق له، إلا انه أصبح عليه فيما بعد أن يجد في هذا الإيمان ما يحدو به عن هذا الوهم والتعسف illusion et arbitraire لكي ينتزع حريته ومحبته: وليس غير الأسد le lion من سيقوم بهذا الخطف rapt. "[3]

---

1 - Nietzsche (friedrich), par dela le Bien et le Mal, traduit par L. Weiscopf et G.Art, édité par Henri Albert, p. 109. Fragment 191.

2 - Crépuscule des idoles, Ibd, p. 35.

** - الأسد: من السباع، معروف، وجمعه أسود، وأسُد، وآسُد، وأُسْدَان، والأنثى أسدة، وفي حديث أم زرع زوجي إن دخل فهد، وإن خرج أسد. وله أسماء كثيرة قال ابن خالويه/ للأسد خمسمائة اسم وصفة، وزاد عليه علي بن قاسم بن جعفر اللغوي مائة وثلاثين إسما [...] وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى، [...] وإنما ابتدأنا به لأنه أشرف الحيوان المتوحش إذ مترلته منها منولة الملك المهاب لقوته وشجاعته وقساوته وشهامته وشراسة خلقه؛ ولذلك يضرب به المثل في القوة والنجدة والبسالة وشدة الإقدام والجراءة والصولة ومنه قيل لحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه: أسد الله. الدميري، كتاب حياة الحيوان، مرجع سابق، ص. 19.*

3- Ainsi Parler Zarathoustra, Ibd, p. 41.

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

بيد أن إنسان الأسد المفتخر بقتل الإله وتحطيم مملكة الرب الذي أبدعها الوحش المفترس، سرعان ما سيقع في نفس الهاوية، إذ لم يأخذ بنصيحة نيتشه التي ترى بأن " الشخص الذي يحارب ضد الوحوش، يجب أن ينتبه حتى لا يتحول هو الآخر إلى وحش. فمتى أطال المرء النظر إلى الهاوية L'abîme، فإن الهاوية نفسها تنظر إليه وتنفذ إلى عمقه."[1]

وبالفعل، إن من زئر يوما بقتل الإله، سرعان ما سيعود ليعيش في ظله، نتيجة ابتداعه لمنظومات قيم جديدة ومؤسسات أخرى، موهما نفسه بأن المؤسسة الأولى كانت تحدد مصير الإنسان وتسلبه حريته، بينما المؤسسات التي ابدعها خلقها بغية أن توفر له الحرية والمساواة والملكية. والحال، أن ما قام به إنسان الأسد هو ' توحيد رأس الوحش '*، وقدم له صلاحيات تمكنه من أن يفتي ويقرر من خلالها في كل ما هو ديني، ودنيوي. لكن هذه المرة باستراتيجيات وميكانزمات مختلفة؛ تتوسل بالدين والفلسفة والقانون.

هذا التوحيد، جعل الوحش يشتغل بآليات مختلفة، دفعت بنيتشه لأن يوسع من حقله الدلالي أو الرمزي، حتى يستطيع النفاد إلى عمق هذه المؤسسات لفهم النظام الذي أصبح يشتغل به القس والفيلسوف والحاكم لتدجين إنسان الأسد، والزّج به في ثقافة القطيع. هذا التوسع أخذ منحى دلالي يعبر عنه نيتشه بمجموعة من الحيوانات: الحيوان المفترس، القردة، الكلاب العاقورة، العناكب، الرتيلاء السامة، الخنازير، الذباب المسموم، ...إلخ.

لعل قلب القيم من طرف الأسد، والطموح لنيل حريته، هو مكافحة للتنين بغية التغلب عليه، وسن نظام معرفي آخر لا يقبل التمركز على مملكة الله، عبر التوسل بالإيمان، بل هو عودة لإحياء الذات، والبحث في مراتع المعرفة عن الحقيقة، متوسلا بالعقل وحده. لذلك لجأ إنسان الأسد إلى خلق نظام معرفي يطمح إلى بلوغ المعرفة العلمية في صرامتها؛ ويهدف إلى تنظيم الحياة العامة، ويوزع المسؤوليات بين المؤسسات تحت ذريعة مبدأ فصل السلط، ويأخذ بالعقل كمعيار للبث في أي معلومة كانت.

وفقا لذلك، سيسعى الحيوان المفترس أن يأخذ دور العنكبوت والرتيلاء السامة حتى يتسنى له نشر خيوطه، في كل مناحي الحياة التي رسمها إنسان الأسد، وأن يشبع كلابه العاقورة (غرائز القس)، لينخر عقل الأسد، وينتشر فيه كالدود، ليلسع معارفه كالذباب المسموم الذي لا تشعر بلسعاته في الحين، وذلك بغية أن يعود لبسط يده على قطيعه الذي روضه من قبل، بفتوى الإيمان وحده؛ إلا أنه يعي الآن متطلبات العصر الحديث التي تفرض عليه تحيين الوسائل التي يشتغل بها.

مغادرة الأسد للحجر وتقويض مملكة الله لتمركز على الذات، واختيار الارتكان للعقل كمنهج موصل للحقيقة، بدل الإيمان كطريق موصل لله، دفع الوحش للتوسل بالفلاسفة حتى يعطي لنظامه الأخلاقي مشروعية تتلاءم وتتكيف مع زئير الأسد في ظاهرها، لكنها تحافظ على نسيجها الديني في باطنها. تكيّف قاد الوحش لتحيّين مفاهيمه ليصبح الحديث لا عن الواجب، بل على الواجب الأخلاقي، لا على الأخلاق، بل على القاعدة الأخلاقية؛ أي على مفاهيم ذات دلالة فلسفية، علمية/ عملية، يرتاح لها عقل الأسد، إلا أنها في الواقع توهمه حتى تقنعه بالقاعدة التي صاغها كانط – أو لنقل بوصف نيتشه– الفيلسوف

1- Par dela le Bien et le Mal, Ibd, p. 92. Fragment, 146.

**- " توحيد رأس الوحش" هو تعبير وظفه جان جاك روسو في كتابه العقد الإجتماعي، عند حديثه عن الدور الذي لعبه هوبز في الفلسفة السياسية، ويقصد روسو بتوحيد رأس الوحش هو الجمع بين الدين والسياسة في يد الحاكم، أنظر الفصل المتعلق ب " الدين المدني "، من كتاب " في العقد الإجتماعي، أو مبادئ القانون السياسي، ترجمة وتقديم وتعليق، عزيز لبيب، ص. 242.*

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

للذي يرتدي عباءة القس، مفادها: " إن الأخلاق تقود على نحو لابد له من الإيمان ". (للدين في حدود مجرد العقل 'كانط ').

يرى نيتشه أن" الإجابة التي قدمها كانط، لم تضعنا نحن الفلاسفة الآخرين على أرضية أكثر صلابة وأقل خداعا! trompeur(أليس من الغريب أن نطلب من أداة أن تنتقد كمالها وأهليتها؟ ومن العقل نفسه أن يعرف قيمته، وقوته وحدوده؟ لم يكن الأمر يدعو للاستغراب إلى حد ما في الواقع؟) الجواب الحقيقي كان، على العكس من ذلك، هو أن جميع الفلاسفة قد شيدوا صروحهم تحت إغراء الأخلاق، وكانط مثل الفلاسفة الآخرين، كانوا يتظاهرون بالاهتمام باليقين، ب ' الحقيقة '، بينما اهتمامهم الحقيقي كان منصبا على صروح أخلاقية عريقة majestueux."[1]

لنتذكر فقط المنعرج الذي عرفته التعريفات التي قُدمت للميتافيزيقا حتى تتبين هذا التوجيه الذي طال إنسان الأسد، وسعى إلى كبح القوة والإرادة التي امتلكها. لقد سعت الميتافيزيقا فيما مضى إلى إقناع إنسان الجمل بالعلل الأولى التي تنظم الكون وتحركه، مع الحفاظ على إمكانية فهمها.

زئير الأسد بعبارة " أجرؤ على استعمال عقلك الخاص " دفع بالتحليل إلى التحديد من تأويله، وبدل الحديث عن الميتافيزيقا كميدان لاكتشاف " المحرك الذي لا يتحرك " أو محاولة حبك النسيج بين العلة والمعلول، ذهب التحليل إلى الحديث عن الميتافيزيقا من منطلقات يحبذها عقل الأسد ويدعو إليها، ويتوسل بها في بناء معارفه؛ أعني هنا مبحث المنطق. وحتى يستطيع الحيوان المفترس تكبيل صحوة الأسد، لجأ إلى الوقوف عند كيفية تشكل المعرفة حتى يُبين قصور العقل للوصول إلى مملكة الله، مبررا ذلك بأن شرط توفر المعرفة يقتضي توفر المادة والصورة، وبما أن صورة الله غير متوفرة فإن الميتافيزيقا تُعنى برسم الحدود الذي يجب أن يقف عندها عقل الأسد.

هكذا يقول نيتشه: " إذا كانت كلمة ' ألمانيا' في الوقت الحاضر جائزة بهذا المعنى، فإن كانط لم يفعل ذلك: لإفساح المجال أمام " إمبراطورتيه الأخلاقية '، اضطر إلى إضافة عالم لا يمكن إدراكه، ' ماورائي ' منطقي، هذا هو السبب الذي جعله في حاجة لانتقاد العقل الخالص ! بعبارة أخرى: لم يكن ليحتاجه إذا لم يكن هناك ذلك الشيء الذي يهمه أكثر من أي شيء آخر – لجعل ' العالم الأخلاقي ' غير قابل للاختراق، بل غير قابل للإدراك من قبل العقل، لأنه كان يعلم مدى هشاشة النظام الأخلاقي أمام العقل ! من وجهة نظر الطبيعة والتاريخ."[2]

وفقا لذلك، يعود الحديث إلى معرفة شروط تشكل المعرفة الدينية عن طريق القلب، ومدى انبساط هذه الشروط لتنظيم المجتمع، والسهر على تأطير العلاقة التي تجمع الفرد بالآخر من جهة، أو العلاقة التي تجمع الحشرات السامة (الشعب / المجتمع)، بالوحش أو الحيوان المفترس (الدولة أو الكنيسة) من جهة أخرى؛ وهذا هو ما سعت الكنيسة لبلورته.

يتجلى الدور الذي لعبه الفلاسفة في مساندتهم للكنيسة، عبر ما وسموه " بالنظام الأخلاقي للحياة " وجعلوه معيار تقاس به قيمة فرد أو مجتمع ما، باعتباره يمثل إرادة الله الثابتة في الكون، ومحاكاة لمشيئته، والواقع، إن" كل مفاهيم الكنيسة غذت معروفة على وجهها الحقيقي الآن، أي كأخبث ما يوجد من تزوير بهدف تجريد الطبيعة والقيم الطبيعية من كل قيمة؛ والقس نفسه قد غذا معروفا على وجهه الحقيقي، كأخطر نوع طفيلي، ورتيلاء السامة الحقيقية التي تهدد الحياة [...] نحن نعرف

---

1 - Nietzsche (Friedrich), Aurore, traduit par Henri Albert, édition Guinefort, p-p. 4-5. Fragment. 3.

2- Nietzsche, (Friedrich), Aurore, Ibd, p-p. 5-6. Fragment. 3

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

وضـــميرنا يعرف اليوم، أي قيمة لتلك الابتكارات الفظيعة التي ابتدعها الكهنة والكنيســة، وأي غرض كانت تخدم، ابتكارات بلغ معها التدنيس الذاتي للإنســانية حدا غدا مظهرها معه مثير للقرف – مفاهيم الآخرة ويوم الحســاب وخلود الروح والروح نفسها؛ إنها أدوات تعذيب، إنها نظم شائعات بواسطتها استطاع القس أن يصبح سيدا.[1]

لنتذكر التراتبية التي لحقت إنســان الأســد حتى نتمكن من معرفة الظواهر التي حالت دون تحقيق الأســد لمبتغاه. لقد عرف الفكر في فلية القرن 16 وبداية القرن 17، بزوغ ما سمي بالنزعة الإنســانية، التي اســتعلنت بالحروب التي شــهدتها الإمبراطوريات، حتى تُظهر الجانب الحيواني في الإنســان الذي حال دون تطوره، إذ اعتبرته جانبا مظلما أدى بالشــعوب إلى الاقتتال نتيجة تصاعد رغباتهم، وتضارب مصالحهم، وعدم ترويض نزواتهم، لذلك وجب تأسيس نظام يكون فيه الإنسان حرا، ونستطيع بموجب امتثاله إلى هذا النظام والأفعال التي يقدم عليها أن نميزه عن الحيوانات.

هذا البزوغ انعكس على فلاســفة الأخلاق ووجه تفكيرهم، إذ " لم يعرفوا الوقائع الأخلاقية إلا عن طريق مقتطفات تعسفية، أو اختصارات عرضية abréviations accidentelles، يمكن أن تكون كأخلاق محيطهم، أو دولتهم، وروح حقبتهم، ومناخهم، وموقعهم الجغرافي، –لأنهم كوَنوا معرفة ضعيفة على الشعوب والحقب الماضية، وأشياء لم يبدون فضولهم اتجاهها، والمشاكل الأخلاقية الحقيقية لم تطرح أمام ناظريهما... "[2]

يصرح نيتشه بالقول ردا على هذه النزعة: " (...) كما أننا نحترس من جهة أخرى من ذلك الغرور الذي ما زال يريد أن يسمع صوته من جديد هنا أيضا، كما لو أن الإنسان يمثل النية الخفية العظمى التي كانت تقود مسار التطور الحيواني. فهو ليس تتويجا للخلقية بأي حال، وكل كائن من الكلئنات التي حوله يقف على نفس للدرجة من الكمال إلى جانبه... وبتأكيدنا لهذا الأمر، تجدنا نمضي أبعد من هذا أيضا، إلى اعتبار مفاده أن الإنسان هو الحيوان الأكثر إعاقة والأكثر هشاشة، وهو المنحرف عن غرائزه على نحو أكثر خطرا؛ ومع ذلك كله فهو بحق الأكثر مثارا للاهتمام أيضا."[3]

تعالت أصوات النزعة المثالية في القرن 18، لتؤسس أنماط من الفكر تصبو نحو فكر متعالي ترسندنتالي، ليصبح الحديث عن الأنا المتعالية، والشــيء في ذاته، (كانط، وديكارت قبله، وهوســرل بعده) وأصــبح تاريخ الإنســان لا يقاس بالأحداث التي شهدها، بل بالفكر أو الأفكار التي تجلت كروح في التاريخ (هيجل).

بهذا، " يمسك المثالي، مثله مثل القس، بكل المفاهيم الكبرى (ولا يمسك بها بيده فقط) ويسخرها باحتقار محسن لمحاربة ' العقل ' و ' الحواس ' و ' المجد ' و ' الرفاه ' و ' العلم ' وينظر إلى هذه الأخيرة كأشياء دون مقامه، كقوى مضرة غاوية يحلق ' العقل ' فوقها مترفعا في حالة من محض الوجود المســتقل بذاته؛ كما لو أن التواضــع والتبتل والعفة والفاقة، وبكلمة واحدة القداسة لم تسبب إلى حد الآن مضارا للحياة أكثر بكثير مما فعل أي نوع من الفظاعات والرذائل... "[4]

لم يقف نيتشه فقط عند فلسفة كانط، كفلسفة وحيدة سعت إلى كبح إرادة إنسان الأسد، بل إن تحليل الآليات التي لشتغل بها الحيوان المفترس، قادته لبدء التحليل من ***لوثر*** الذي سعى إلى إصباغ العقلانية على كلام ***بولس***، مرورا ***بباسكال*** الذي حيّن من مفهوم اليأس، وصولا إلى ***كانط*** الذي قيد من طموح العقل، منتهيا بشغيل الفلسفة ***شوبنهاور*** الذي رّسخ مفهوم

1- نقيض المسيح. مرجع سابق، ص. 85 – 86.

2 - Par dela le Bien et le Mal, Ibd, p. 102. Fragment. 186.

3- نقيض المسيح، مرجع سابق، ص. 41.

4- مرجع سابق، ص. 33.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

التشاؤم والشفقة. أقتبس هنا: " (...) إن الإشفاق وسيلة إقناع بالعدم !... لكن لا يقال هنا ' عدم '، بل يقال عوضا عن ذلك ' آخرة '؛ أو ' إله '، أو الحياة الحقة ' ، أوالنيرفانا، والخلاص، والسعادة. هذه البلاغة البريئة المنحدرة من مملكة الحسلسية الأخلاقية– الدينية ستتراءى بسرعة أقل براءة بكثير مما تبدو عليه، حالما ندرك أية نزعة تلتحف هنا برداءة العبارات القدسية: النزعة المعادية للحياة. ولقد كان شوبنهاور معاديا للحياة؛ لذلك جعل من الشفقة فضيلة..."[1]

يذهب إنسان الأسد إلى التباهي بمعالم الحداثة التي أنتجها، والتي تجسدت في مؤسسة الدولة والحكومات، والأنظمة التي تشتغل عبرها كالديمقراطية والاشتراكية، ومفاهيم من قبيل الحق والعدالة، الشيء الذي قاده في نهاية المطاف إلى السقوط في العدمية، بالبحث عن سلطة المال وحب امتلاك آليات السلطة، الأمر الذي أدى به إلى أن يكون حيوان لاهث يجري وراء كل شيء، ويريد كل شيء.

1- نفسه، ص. 31.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

المصادر والمراجع بالعربية

- *إبن باجة الأندلسي- الفيلسوف الخلاق، سلسلة أعلام الفلاسفة، الجزء الأول، إعداد الشيخ محمد كامل محمد محمد عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.*
- *عبد العزيز لبيب ، نظرية العقد الاجتماعي من هوبز إلى روسو، مجلة تفاهم، حقوق الله وحقوق العباد: الحرية والمسؤولية، العدد 39، تصدر عن وزارة الاوقاف والشؤون الدينية، سلطنة عمان-مسقط.*
- *فريديرك نيتشه، نقيض المسيح، ترجمة علي مصباح، منشورات الجمل، بيروت-بغداد، الطبعة الاولى 2011*
- *فريديريك يتشه، إنسان مفرط في إنسانيته الجزء الأول، ترجمة محمد الناجي، إفريقيا الشرق- المغرب، الطبعة الأولى 2002*
- *كمال الدين محمد بن موسى الدميري، حياة الحيوان الكبرى، تهذيب وتصنيف، أسعد الفارس، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق- أوتوستراد المزة.*
- *محمد سامي عبد السلام حسانين، اللزوم الدلالي لأسماء الحيوانات في القرآن، الإعجاز والتفسير، بورصة الكتب، الطبعة الأولى 2014.*
- *محي الدين إبن عربي، الإنسان الكامل و القطب الغوث الفرد، جمع وتأليف، محمود محمود الغراب، الطبعة الثانية*
- *نيكولا مكيافلي، الأمير، ترجمة، جمال ابراهيم، الحرية للنشر والتوزيع، ميدان عرابي – القاهرة.*

المصادر والمراجع باللفرنسية والانجليزية:

- *Claude Stéphane PERRIN, Nietzsche: l'aigle et le serpent de Zarathoustra, 19 Octoubre 2012*
- *Friedrich Nietzsche, Crépuscule des idoles, traduit par Jean-Claude Hémery, éditions Gallimard,*
- *Friedrich Nietzsche, Ainsi parlait Zarathoustra, traduire et commentaires par Georges-Arthur Goldschmidt, Le Livre de Poche classiques*
- *Friedrich Nietzsche, Aurore, traduit par Henri Albert, édition Guinefort*
- *Friedrich Nietzsche, Le Gai Savoir, traduit par Henri Albert, édition électronique (ePub) v. : 1,0 : Les échos du Maquis, 2011.*
- *Friedrich Nietzsche, par dela le Bien et le Mal, traduit par L. Weiscopf et G.Art, édité par Henri Albert*
- *Tales Aristotle, On the Parts of Animals, translated with a Commentary by James G. Lennox, Clarendon press OXFORD, 2001*

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/